الباب الثالث

في ضرر السلطان حين انقلب الزمان

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «إذا جارَ السلطانُ قحطتِ السماءُ، وإذا منعَ الزكاة هلكتِ المواشي».

وقال عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ: «إنَّ من الفواقِرِ سلطاناً إن أحسنتَ لم يحمدْكَ، وإن أسأْتَ قتلَكَ».

وقالَ رجلٌ لابنِ مسعودٍ: متى أَضِلُّ وأنا أعلمُ؟ قال: إذا كان عليك أمراءُ، إن أطعتهم أدخلوكَ النارَ، وإن عصيتهم قتلوكَ.

وقال بُزرُجمهر: قواصمُ الظهرِ: إمامٌ جائرٌ، إنْ أطعتَه أكفرَكَ، وإن عصيتَه أهلكَكَ.

وقال بعضُ الفلاسفةِ: شرُّ المالِ ما لا يُنفَقُ، وشرُّ الإخوانِ الخاذلُ، وشرُّ السلطانِ مَنْ خافَ منه البريءُ، وأَمِنَ منه المجرمُ، وشرُّ الجيرانِ الحاسدُ، وشرُّ البلدانِ ما ليس فيه خِصْبٌ ولا أمنٌ.

وقال الحُرُّ بنُ يزيد: عجباً لمن ظلمَ غيرَه كيف يُنصفُ نفسه؟! وعجباً لمن أنصفَ نفْسَه كيف يظلمُ غيرَه؟!.

---

(1) الأنفال: الآية (25).

وقال لقمانُ لابنهِ: يابُنَيَّ لا تُعَادِ الملوكَ فيقتلوكَ، فإن عُقُولَهم كعقولِ الصبيان، وبَطشَهُم كبطشِ الأسدِ، ومثلُهم كمثلِ النارِ، إن دنوتَ منها أحرقتك، وإن تباعدتَ منها نجوتَ.

وقال فضيلٌ: إن اللَّهَ لا يهلكُ الرعيةَ وإن كانت ظالمةً، إذا كان الأئمةُ هادين مهدين، وتهلَكُ وإن كانتْ هاديةً مهديةً ـ إذا كان الأئمةُ ظالمين، لأن أعمالَ الأئمةِ تعلو أعمالَ الرعيةِ.

وقال معاويةُ لابنِ الواصفِ: صِفْ لَيَ الزمانَ، فقالَ: أنتَ الزمانُ، فإن تفسُدْ يفسُدْ، وإن تَصلُحْ يَصلُحْ، قال: ودَخَل أبو حازمٍ على بعضِ الأمراءِ، قال وما حاجتك يا أبا حازم؟ قال: تركتَ الناسَ على البابِ، فإن أذنتَ لأهلِ الشرِّ تباعَدَ أهلُ الخيرِ، وإن أذنتَ لأهلِ الخيرَ تباعدَ أهلُ الشرِّ.

وقال: أحرفُ السلطانِ ينبغي لصاحبِهِ بكلِّ حرفِ خصلةٌ، ينبغي أنْ يكونَ سامعَ التَّظلُّم، سَنِيَّ الرتبِ، لطيفَ الإجابةِ، ليِّنَ الجانبِ، طاهراً من الجورِ، طلوباً للثأر، أهيبَ الناسِ من الجور، نقيَ الأثرِ، نائي الفِشِّ.

الحكاية

حكي: أن ملكاً في الزمانِ الأولِ خرجَ متصيِّداً، فأصابه البردُ حتى جَمَدَ على الفرسِ، فجاءَ به الفرسُ إلى بابِ قصرِ مَلِكَةٍ، فأمرتْ أن يأخذوه ويعالجوه بقصبِ السكَّرِ حتى أفاق، ورجعَ إلى حاله، فنظر الملكُ إلى مملكةِ تلك المرأةِ فأعجبه، وهمّ أن يغزو إليها، ويأخذ ملكَها عُنوةً، فعقل ماء السكر في القصبِ بعد ذلك، فقالتِ الملكةُ: إن الرجلَ الداهشَ ينبغي أن يكونَ من الملوكِ، وقد همَّ بالجور والشرِّ، فمِنْ ذلك عَقِلَ الماءُ في القصبِ، فذُكرَ ذلك له، فاعترفَ وندِمَ، فبعدَ ذلك ردَّ الماءَ منه.